التفسير وعلوم القرآن في مجرى التاريخ

الشيخ محمود سرائب

قراءة في كتاب: علم التفسير كيف نشأ وتطور حتى انتهى إلى عصرنا الحاضر

تأليف:عبد المنعم النمر

الناشر: دار الكتاب المصري ـ دار الكتاب اللبناني

التاريخ: الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

كتاب «علم التفسير كيف نشأ وتطور حتى انتهى إلى عصرنا الحاضر»، عبارة عن دراسة في نشأة علم التفسير وتطوره، والأسس الفكرية والمنهجية التي كانت تحكم المفسرين منذ عصر الصحابة إلى عصرنا الحاضر، وأهم مذاهبهم ونتاجاتهم العلمية في هذا المجال، وقد تساءل الكاتب إلى أي مدى يمكن للمفسر توظيف العلوم الحديثة والاكتشافات العلمية في تفسير القرآن... وهل قام المسلمون بتوصيل معاني القرآن إلى غيرهم؟

يفتتح المؤلف د. عبد المنعم النمر كتابه ببحث حول الإسلام والعلوم، وبعد عرض لنظرة الإسلام إلى العلم من خلال الروايات والآيات يقول: «**على هذا الأساس من الفهم المستقيم لمعنى العلم، انطلق المسلمون إلى العبِّ من المعرفة، بشتى ألوانها وموضوعاتها دون أي تحرج من تعلم أي علم**»(١).

ويعد بعد ذلك مجموعة من العلماء الكبار في الإسلام جمعوا العلوم والمعارف المتنوعة منهم: البيروني، الكندي، ابن الهيثم، ابن سينا.... ثم ينتقل بعد هذه المقدمة إلى علم التفسير، فيرى أن نشأة العلم كنشأة كل كائن حي تام ... يبدأ ببذور صغيرة ثم يتطور؛ وهكذا علم التفسير. ولكن قبل البحث عن البذور الأولى المكونة لعلم التفسير، يستعرض الكاتب مجموعة من الأمور المختلفة المتعلقة بالقرآن الكريم من ناحية كيفية نزوله، وحفظ الصحابة له، والمصاحف العثمانية وأسباب النزول وغير ذلك.

ثم يطرح سؤالاً مفاده: هل ترك الرسول(ص) تفسيراً كاملاً للقرآن؟ ويجيب على ذلك قائلاً: «**لعل البعض يفهم من قوله تعالى ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ أن الرسول(ص) تولى تفسير كل آية من القرآن لصحابته(رض) ولكن هذا فهم مبالغ فيه، وغير دقيق؛ إذ إن قوله يعني تبين ما يحتاج إلى بيان**»(٢).

ومما لا شك فيه أن الصحابة كانوا يرجعون إلى الرسول(ص) لتفسير بعض المواضع من القرآن الكريم، ولكن إلى أي مدى يمكن أن نثق بصحة ما نقل عنهم، خصوصاً أن هناك كثيراً من الإسرائيليات والروايات التي تخالف صريح العقل؟ يقول: «**وليقل الصحابة ما يشاؤون حسب علمهم عن أمورهم، فقد تكون صحيحة وقد تكون غير صحيحة، ولسنا ملزمين بأن نأخذ ما يروى عنهم كما هو، فكل يؤخذ منه ويردُّ عليه، ما عدا رسول الله(ص). فلا بد، إذن، من التحوط في قبول بعض الأحاديث الخاصة بتفسير القرآن المروية في بعض كتب الحديث عن الرسول(ص)... أما ما يروى عن الصحابة والتابعين فيجب أن نقف منه موقف التحرز والتحوط، وما علينا من شيء إذا لم نقبل ما روي من أحد منهم وقلنا بغيره**»(٣).

ثم يستعرض بعد ذلك الروايات الكثيرة التي يرويها أرباب التفسير عن ابن عباس، في

حين يسأل عن عُمْرِ ابن عباس آنذاك والذي لم يتجاوز الثانية عشر عند وفاة النبي(ص) كيف مكنه من هذا النقل حتى تكاد لا تجد آية في القرآن إلا ولها رواية يرويها العلماء عن ابن عباس، ثم ينقل الشافعي:. «**لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث**»، ويعتبر أن أكثر ما روي عن ابن عباس قد أضيف إليه في زمن الدولة العباسية، ثم يعرض جملة من الإسرائيليات التي نسبت إليه وهي روايات بعيدة عن العقل والمنطق، ويضعف التفسير المنسوب إليه المسمى «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» الذي جمعه مجد الدين الفيروزآبادي، بل يعتبر أصل نسبته إليه غير صحيح.

وبعد هذا العرض يقول في حق ابن عباس: «**كان عملاقاً في علمه فاستغل اسمه وسمعته العلمية كل من أراد ترويج بضاعته الإسرائيلية الزائفة**»(٤).

ثم يتساءل حول فكرة تعتبر من أهم ما طرح في هذا الكتاب وهي: إلى أي حد كان الصحابة يفهمون القرآن ويفسرونه؟ ولكي يجيب على هذا التساؤل يضع الكاتب أمامنا مجموعة اعتبارات منها:

١- أن القرآن عربي والصحابة عرب فصحاء

وهذا «**يدلنا بلا شك على أن القرآن كان مفهوماً للعرب بمجرد أن يسمعوه؛ إذ لو لم يفهموه لما تأثروا به ولما سحرهم بنفوذ بيانه**»(٥).

ولكن التنوع المعرفي الذي عرضه القرآن الكريم يجعلنا نتأمل في حدود معرفة الصحابة، وأنها لم تكن معرفة مستوعبة لكل آية، وكل كلمة، ولكل الموضوعات التي طرحت والتي عالجت القضاء والقدر، والإيمان بالله وغير ذلك.

٢- اختلاف مستوياتهم في الفهم والذكاء، كما أنهم لم يكونوا سواء في قربهم من الرسول(ص) وبعدهم عنه.

٣- إن الوقت كان وقت دعوة وبناء، وأن هناك آيات نزلت وأحاديث صدرت عن الرسول(ص) تحد من تتبع المتشابهات وكثرة السؤال.

٤- البيئة العربية في ذلك الوقت لم تكن بيئة علمية بالمعنى المعروف ثم يروي الكاتب مجموعة روايات مذكورة في البخاري وغيره تؤكد هذا الاختلاف بالفهم الذي قد يصل ببعض الأحيان إلى الظن بمخالفة بعض أحاديث النبي(ص) للقرآن الكريم.

يروي عن السيدة عائشة لما سمعت رسول الله(ص) يقول: «**من حوسب عذب**» إن هذا القول في ظاهره يخالف قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا**﴾، فهناك إذن من يحاسب، ثم يلقى أهله مسروراً في الآخرة، ولا يلحقه عذاب، وأما الحديث فيفيد التعميم، فتلجأ إلى الرسول(ص) وتحتج بالآية فيقول(ص): «**إنما ذلك العرض**»(٦). وغير ذلك من النماذج المختلفة التي تؤكد اختلاف الفهم بين الصحابة.

هذا هو حال التفسير في عصر الرسول(ص)، وقد ظل التفسير بعده غير

مدوّن حتى مستهل القرن الثاني الهجري، فانفصل التفسير عن الحديث:

«**وأول من ألف في التفسير هو عبد الملك بن جريح ت: ١٤٩هـ**»(٧). ثم عرض الكاتب لمجموعة من كتب التفسير منها التفسير المأثور مثل «جامع البيان» للطبري و«بحر العلوم» للسمرقندي، وبعض كتب التفسير بالرأي مثل «تفسير النسفي» وغيره، وبعض تفاسير المعتزلة من قبيل «تفسير الكشاف» للزمخشري.

بعد ذلك قام بدراسة مجموعة من التفاسير منها:

تفسير ابن جرير الطبري:

ويرى الكاتب أن ابن جرير الطبري يورد روايات، وهو عالم بما فيها من تناقض أو كذب ثم ينتقدها أحياناً، ويترك بعضها من دون نقد، ويدعو الكاتب إلى «**تجريد هذا التفسير وأمثاله من كل رواية غير صحيحة سواء أكانت إسرائيلية أم موضوعة... وإخراج الكتاب بعد ذلك للناس بريئاً من العيوب**»(٨).

تفسير الفخر الرازي:

وينقل الكاتب أن هذا النسق من التفسير لم يكن مألوفاً في ما كتب من تفسير؛ لأنه يعتبر أول تفسير دعمه صاحبه بالعلوم التي أتقنها من فلسفة، وطب وفلك؛ لذلك انتقده جملة من العلماء منهم «ابن حيان» إذ يقول: «**جمع الرازي في تفسيره أشياء كثيرة لا حاجة لها في علم التفسير؛ ولذلك قال بعض العلماء فيه كل شيء إلا التفسير**»(٩).

ثم بعد ذلك يتعرض لدور النهضة الحديثة للتفسير التي بدأت في القرن الرابع عشر الهجري، ونهايات القرن التاسع عشر الميلادي، ويذكر إسهامات الشيخ محمد عبده، وتلميذه السيد رشيد رضا، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والشيخ الطنطاوي.

ثم يتحدث عن القرآن والعلم ويقول في هذا المجال:

«**أحب أن أذكر هنا وأؤكد أن هناك فرقاً كبيراً بين أن نستعين بالعلم، لتوضيح معنى آية أو جملة أو إظهار إعجاز القرآن، وبين أن تؤوّل الآية أو الجملة أو الكلمة تأويلاً تعسفياً، لتكون مطابقة لما يقال من أنه علم**»(١٠).

ثم يتحدث الكاتب عن طرق تنقية التراث والكتب التفسيرية ويقول بأنّ هناك طريقين:

الأول: وضع كتب مستقلة عن هذه التفاسير تبين هذه الإسرائيليات والروايات التي لا أصل لها.

الطريق الثاني: أن يدون هذا على هامش التفسير حين إعادة طبعه، ويرى الكاتب: «**أن تُجرَّد هذه الكتب من كل هذا الغذاء الفكري السام، ويعاد طبعها بدونه، حتى لا يتسرب للأفكار شيء من هذه السموم**»(١١).

ويختم المصنف الكتاب بالحديث عن ترجمة القرآن أو تفسيره باللغات غير العربية، والمقصود هنا بالترجمة ترجمة معانيه، وذكر المعنى الذي تدل عليه ألفاظه العربية بلغة غير عربية؛ لأن دخول الإسلام والتبليغ الديني إلى بلاد غير عربية يتطلب ترجمة القرآن، وإلا كيف «**يتم ذلك من دون أن نترجم القرآن إلى لغتهم، وكذلك كل ما يتصل بفهمهم لن يفهم**»(١٢).

الهوامش

(١) علم التفسير، ص ١٠.
(٢) م. ن، ص ٢٣.
(٣) م. ن، ص ٢٥.
(٤) م. ن، ص ٣٦.
(٥) م. ن، ص ٣٩.
(٦) م. ن، ص ٤٧.
(٧) م. ن، ص٨٩.
(٨) م. ن، ص ١١٤، ١١٥.
(٩) م. ن، ص ١٤٨.
(١٠) م. ن.، ص ١٤٨.
(١١) م.ن.، ص ١٥٩.
(١٢) م.ن.، ص ١٦١.